

مَجْمَعُ الذِّكْرِ

أو

شِعْرَاءُ عَبَّاسِيُونَ مَنْسِيُونَ

الجزء الخامس

مسالك البطالة

أو
التطرح في الديارات ومنزلها مزاها ومهانها

ابراهيم النجار

أستاذ بكلية الآداب

الجامعة التونسية

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجامعة التونسية

© حقوق الطبع محفوظة

مدخل

ما أدرجناه من نصوص في هذا الجزء الخامس من المدونة ، حيث يتعلق الغرض بوجه من وجوه الحياة اللاهية في الأعصر العباسية الأولى وبفضاء خاص هو فضاء الأديرة ، وإنما ورد معظمه بكتب الديارات والبلدان (1) ، بل تكاد تنفرد هذه المظان بالكثير من عيونها . وهي نصوص - كغيرها مما أوردناه في الأجزاء الأربعة السابقة - أغفل معظمها الدارسون لقلّة تداولها بين أيديهم فبقيت مهملة في خزائن المخطوطات أو مطوية في ما نُشر من أمتهات الآثار . ومما لا شك فيه أن ما ورد في بعضها من "فاحش المسجون" ، وما خرج منها عن مألوف السنن ، كان من تبعات زهد المحققين في جمع شتاتيه والكشف عن قائله (2) . وإن ما عثرنا عليه في هذا الباب من شعر للمشهورين

(1) أهمها : الديارات للشابثي (وهو المصدر الأم) ومعجم البكري ، ومعجم ياقوت ، وآثار القرويني ، ومسالك العمري ، وعطّ المقريزي ، والبدور المسفرة في نعت الأديرة لشمس الدين محمد بن علي بن محمد (753) . ونجد بهذه المصادر نقولا كثيرة عن أصول ضائعة : منها كتب الديارات لابي الفرج والسري الرفاء والخالدين والشمشاطي (انظر تراجم هؤلاء ، وكذلك كتاب الفهرست) .

(2) مثال ذلك في غير هذا السياق شعر راشد بن اسحاق ، ويجد القاري معظم ما تبقى منه في الجزء الرابع من هذه المدونة .

خَلَّتْ مِنْهُ دَوَاوِينُهُمْ (3) وَوَرَدَ مَبْعَثَرًا فِي كُتُبِ الدِّيَارَاتِ وَالْبُلْدَانِ لِخَيْرِ شَاهِدٍ عَلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ ، وَلِإِنْ تَبَيَّنَ لِلْبَاحِثِ بَعْدَ الْفَحْصِ أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ لَيْسَ أَقْلٌ دَلَالَةً عَلَى قَائِلِيهِ مِنْ سَائِرِ شِعْرِهِمْ الْمَعْرُوفِ الْمُدَوَّنِ . عَلَى أَنَّ نَظَرَنَا فِي هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْمَدُونَةِ سَوْفَ يَتَجَاوَزُ فِي مَرِحَلَةٍ أَوْلَى هَذَا الْوَجْهَ مِنَ الْقَضِيَّةِ لِتَعَلُّقِ أُسَاسًا بِاسْتِجْلَاءِ مَا تَحَدَّثَتْ بِهِ رُؤْيَيْنَا لِهَذَا الشَّعْرِ عِنْدَ أَوْلَى مُقَارَبَتِنَا لَهُ ، أَلَا وَهُوَ الْبُعْدُ الْحَضَارِيُّ وَالْبَعْدُ الثَّقَافِيُّ (4) .

ذلك - وبإيجاز - أن الديارات وما كانت تُتَّيَّحُ لِمُرْتَادِيهَا مِنْ الشُّعْرَاءِ مِنْ مُسْتَنْطَابِ الْإِقَامَةِ بِبَسَاتِينِهَا وَمُنْتَزَهَاتِهَا "أَيَّامَ الْآحَادِ وَالْأَعْيَادِ" حَيْثُ تَلْتَمِثُ مَجَالِسُ السُّرُورِ وَالْقُصْفِ وَاللَّعِبِ" كَمَا يَقُولُ الشَّابُثِيُّ ، تَخْرُجُ بِنَا عَنْ فِضَاءِ الْمَدِينَةِ وَلَهُوَهَا اللَّيْلِيُّ بِحَانَاتِهَا الْمَخْفُورَةِ ، وَدَسَاكِرِهَا الْخَفِيَّةِ ، وَدُورَ دَهَاقِينِهَا الْمُرِيَّةِ وَ"مَسَاقِطِهَا الدَّزِيَّةِ" ... (5) مِمَّا تَحَدَّدَ إِطَارُهُ فِي خَمْرِيَّاتِ الْمُحَدِّثِينَ (6) - ، تَخْرُجُ بِنَا عَنْ هَذَا الْفِضَاءِ لِتَلْتَلِجَ بِنَا أَوْسَاعَ الطَّبِيعَةِ النَّيْسِرَةِ حَيْثُ تَقُومُ الْبَيْعُ وَالصَّوَامِعُ وَالْقَلَالِيُّ وَالْأَكْبِرَاحُ وَسَطَ بِيْرِكِ الْمِيَاهِ وَ"حُدَيْقَاتِ الْوَرْدِ وَالْآسِ" وَالْكَرُومِ وَالْفَوَاكِي ، وَيَشْرَبُ أَهْلُوهَا مِنْ ذَوِي التَّطْرِبِ وَاللَّذَازَاتِ مَعْتَقَاتِ الْخُمُورِ "عَلَى ... رِيَاضٍ مِنْ

النَّوَارِ زَاهِرَةٍ تَجْرِي الْجَدَّأُولُ مِنْهَا بَيْنَ جَنَاتٍ" (7) ، وَيَتَجَانَسُ عَلَى بُسْطِهَا "الرَّاحُ وَالرَّيْحَانُ" ، وَتَتَقَابَلُ فِي خَلَوَاتٍ مَقَاصِرِهَا طَاسَاتُ الشَّرَابِ الْمَخْرُوطَةُ وَصُورُ الْوُجُوهِ الْفَاتِنَةِ الْمُنْقُوشَةُ عَلَى الْأَنْوَاحِ (8) وَقُدُودُ السَّقَاةِ مِنَ الْمُرْدِ الشَّمَامِيَّةِ أَوْلَادِ الرَّهْبَانِ ، وَتَتَجَاوَبُ فِي مَسَارِحِهَا صَلَوَاتُ الْقُسْتَانِ الْمُتَبَتِّلِينَ وَأَصْوَاتُ الطَّيُورِ ، وَتَتَجَانَسُ فِي هَيَاكِلِهَا "قَرَعُ النَّوَاقِيسِ" وَ"رَنَاتُ الْمَثَالِثِ وَالْمَثَانِي" ، وَتُقَامُ فِي سَاحَاتِهَا أَعْيَادُ "السَّعَانِينَ" وَ"السُّلَاقِ" وَ"الذَّبَّحِ" وَ"الْمِيلَادِ" وَ"الْفِصْحِ" تُشَيِّعُهَا "الْمُتَقَيِّنَاتُ" مِنَ الرَّاهِبَاتِ وَقَدْ حَمَلْنَ "الْأَعْلَامَ وَالصُّلْبَ" وَتَزَيَّنَّ بِأَوْشِحَةِ "الْخُوصِ وَالزَّبْتُونَ" (9) . وَفِي إِطَارِ هَذَا الْفِضَاءِ الْحَضَارِيِّ الْمَتَمَيِّزِ - لَا نَنْسَى أَنَّ بَدَارَ الْإِسْلَامِ ! - حَيْثُ تَأْتَلِفُ عِنَاصِرُ الطَّبِيعَةِ النَّزْهَةِ الْمِعْطَاءِ مَعَ مَعَالِمِ النَّصْرَانِيَّةِ وَطُمُوسِهَا يَصْدَعُ أَهْلُ الْبَطَالَةِ مِنْ شِعْرَاءِ بَغْدَادِ بِنَشِيدِ الْمَسْرَةِ الْجَامِحَةِ وَيَبْلُغُ الشَّعْرُ لَدَيْهِمْ أَقْصَى دَرَجَاتِ الْبِدَاهَةِ فِي اسْتِجْلَاءِ دَقِيقِ الْهَوَاجِسِ وَخَفِيِّ الشَّهَوَاتِ ، وَتَرْقَى الْحَاسَةُ عِنْدَهُمْ إِلَى أَسْمَى دَرَجَاتِ التَّعْبِيرِ عَنْ جَمِيلِ الْأَشْكَالِ وَنَيِّرِ الْأَلْوَانِ وَفَنَاتِنِ الصُّورِ .

- (7) من قصيدة لمحمد بن عاصم (انظر شعره بهذا الجزء / رقم 2 ، البيت 2) .
 (8) انظر القصيدة رقم 4 لعبد الله الربيعي ، وكذلك القصيدة رقم 4 لمحمد بن عاصم ، ولعل هذه الصور هي من نوع الايقونات (Icons) التي ابتدعها رسامو الكنيسة الشرقية ، وهي تمثل عادة بطريق الحفر على الجدران (الفسيفساء) أو باستعمال الأصباغ على زجاج كوى النوافذ والألواح - تمثل مريم العذراء وشهيرات القديسات .
 (9) ما وضعناه بين ظفرين دون ما إحالة على مصادره إنما يرجع فيه إلى عموم المدونة وبخاصة شعر الثرواني ، والربيعي ، ومحمد بن عاصم ، وجبطة . (انظر الحلقات الأربع الأولى من هذا القسم من المدونة) .

- (3) انظر قصائد أبي تمام وأبي نواس الواردة على التوالي بالصفحات : 170 ، 169 ، 177 ، 187 ، 197 بهذا الجزء .
 (4) نحن لا نهمل البعد الجمالي ، وإنما نتعرض له بإجاز في هذا المدخل على أن نعود إليه بالتفصيل في دراسة لاحقة .
 (5) وردت هذه العبارة في البصائر والذخائر للتوحيد .
 (6) انظر دراسة جمال بن الشيخ : "خمريات أبي نواس ... " بمجلة الدراسات الشرقية (B.E.O.) المجلد 18 / 1964 .

على أنّ هذا الشعر - وهو ما ينبغي أن لا نُهملَه - لم يكن ليؤلف من حيث أغراضه مسلكتاً جديداً استحدثته المولّدون ، فقد يدبّرنا أشاد شعراء الجاهلية والاسلام (الأعشى ، الأقيشر ، أبو ذؤيب ، جرير ، وغيرهم) بما كانت تُنصحُه لهم حانات الطائف ونجران والحيرة والشام وأدبَرتَها من أسباب الرّاحة والتّطرب والبطالة ، إلا أن ذلك كان يرد في مجارى قصائدهم لا يستقل عنها ، وإن استقل فأبيات طائفة ، ولا يعدو الأمر في الحاليتين أن يكون لِمسات خاطفة لا تبلغ من الكشافة وصدق الرؤيا ما بلغه شعرُ المحدثين (10) . تلك هي الظاهرة الأولى التي يكشف عنها شعرُ الديارات والتي حدّدناها بالبعد الحضاري لهذا الشعر .

أما الظاهرة الثانية فهي تتمثل في ما يكشف عنه هذا الشعر من تحول ثقافي طرأ على بعض شرائح المجتمع الحضري بالعواصم الجديدة . ويبرز هذا بوضوح وبصفة خاصة في أنماط السُّلوك الهامشي ومسالك النظر المتحرر التي سار عليها فئات المخلاء من " المتطرفين وأولاد النعيم " (11) ومن تبعهم أو كان يعيش في ظلالهم من الشعراء ، وهي كما سنرى طرائق في السلوك والنظر لا تبعد كثيراً عما تخلقت به معظم فئات الظرفاء ببغداد وغيرها من العواصم المستحدثة ، من خروج عن مألوف العادات والسُّنن . على أن ما تميّز به الظرف لدى شعراء الديارات هو اقترانه في كثير من شعرهم

(10) انظر أمثلة لذلك في مسالك الأبصار (ص 322 - 328 ، ص 342 - 359 ، ص 386 - 388) ومعجم البلدان ، وديوان الأعشى (قصيدته التي طالعها : ألم تنه نفسك عما بها بلي عاها بعض إطرابها حيث يتعرض إلى كعبة نجران .
(11) ومنهم الشاعر عبد الله بن العباس الريمي (انظر شعره ص 57 - 74 ادناه) .

بالمجانة السّافرة مما ينزل أحياناً الى درجة الإقذاع والفحش . ولا غرابة ! فالظرف ، وإن كانت المروءة والفتوة والعفة سنته الغالبة ، كما يقول الوشاء (13) ، كثيراً ما اقترن لدى القدماء باللهو والاستهتار والزندقة . أكرم يقولوا في الوليد بن يزيد (د 126 هـ) إنه " كان من فتیان بنی أُمیة وظرفائهم وشُجعانهم وأجوادهم ، منهمكاً في اللهو والشراب وسمّاع الغناء ، مستهترا بالمعاصي عاكفاً على اللذات منتهكاً للحرمت زنديقا " ؟ (14) ، كما قالوا بعده في والبة بن الحباب (170 هـ ؟) بأن إخواناً له " كانوا مثله في الفتوة والظرف وإدمان القصف والتهو " (15) ؟ ثم ألم يكن " الجاهل الغر من أهل ذلك العصر زمن المهدي يتطفل على الزندقة ينتحلها ليعد من الظرفاء " ؟ (16) حتى قيل " أظرف من زنديق " . أصب إلى ذلك أن الظرف - وهو ما ألمعنا إليه في الجزئين الثاني والثالث - كثيراً ما اختلطت شرائعه في أذهان النقاد في القديم بظاهرة الوسوسة (خالد الكاتب وماني الموسوس) (17) ، وظاهرة المحارفة والصعلكة (أبو الشمقمق ، جحظة) (18) وظاهرة السُّخف (عمار ذو كِنَاز ، أبو دلامة ، أبو المخنف ، أبو العبر) (19) ، بل إن سلاطة اللسان في الهجاء ، في نظر القدماء ، قد لا تتنافس وسنن الظرف كما هو الشأن مع علي بن بسام ، وعلي بن الخليل ،

(13) انظر كتاب الموشى في الظرف والظرفاء : ص 37 .

(14) الفخري في الآداب السلطانية : ص 97 .

(15) قطب السرور في أوصاف الخمور : ص 113 .

(16) ثمار القلوب في المصاف والمنسوب : ص 176 - 177 .

(17) انظر الجزء 2 على التوالي ص 64 - 66 ، 289 - 334 .

(18) انظر الجزء 3 على التوالي ص 35 - 61 ، 62 - 82 .

(19) انظر الجزء 3 على التوالي ص : 357 ، 375 ، 405 ، 439 .

وعبد الله اللاهقي (20) : فلا عجب بعد هذا إن عُدَّ شعراء الديارات من الظرفاء ، وهو ما يفسر وجهًا من وجوه التحول الثقافي الذي أشرنا إليه آنفاً ، فتهاوت هؤلاء على " منازل السرور " (21) وطلبهم المتعة من كل سبيل ، واتخاذهم اللذة الجامعة منهجًا سلوكيًا يجاهرون به (عمرو الوراق ، مُصعب الكاتب ، الثرواني ...) ، وما أفضى إليه هذا كله لدى بعضهم من استخفاف بالقيم وتجديف أحياناً ، لم يعد من تبعاته إسقاط المرأة التي هي عمود الظرف كما رأينا ، وإنما تستقط المرأة في نظري هؤلاء ، ويخرج المرء عن صفات الظرفاء ، إذا هو كان " من أهل الجهالة والجهلاء ، وغلب الطبع ، وفساد الحس " كما يقول الجاحظ (22) فـ " اللذة " إذن لم تعد تقترب " إسقاط المرأة " كما حدد ذلك عمرو بن العاص لمعاوية (23) ، وإنما تُصبح ، بعكس ذلك ، دليلاً للظرف إذا هي كانت من نصيب " المستمتمين بالنعمة ، والمؤثرين للذة ، المتمتمين بالقيان [والغلمان أيضاً] ، المعدّين لوظائف الأطعمة وصنوف الأشربة ... أصحاب الستر والستارات والسرور والمروءات (22) . فتصاريف الظرف هنا كما نلاحظ ، إنما تنم عن حساسية حضريّة جديدة تقوم على وازع الاستطراف ، والتنوق في المنظر والمسمع والملمس والمذاق ، والخروج عن العادة ومألوف السنن في السلوك إلى درجة الإغراب أحياناً وإن تجافى عن ذلك أهل " الكرم والتبلى والوقار " . وما

(20) انظر الجزء 3 على التوالي ص : 175 ، 243 ، 281 .

(21) ترد هذه العبارة ضمن العنوان الذي وضعه الغزولي لمؤلفه : " مطالع الهدور في منازل السرور " .

(22) رسائل الجاحظ (كتاب القيان) : ج 2 ص 143 .

(23) رسائل الجاحظ (كتاب مفاخرة الجوازي والغلمان) : ج 2 ص 119 .

البطالة التي جعلناها عنواناً لهذا القسم من المدونة إلا كما قال الحسين ابن الضحاك - أحد شعراء الديارات - مخاطباً " حانة الشط " :
 " يا حانسة الشط قد أكرمت مثنواننا
 عودي بيسوم سرور كالذي كانا "
 " لا تفقدينا دعابات الأمير ولا "
 طيب البطالة إساراً وإعلاننا " (24)
 وهكذا فإن ما قد يبدو لبعضهم من ذوي المروءات (ونشير هنا بصفة خاصة إلى نماذج الظرفاء كما حددها الوشاء) ضرباً من المفاحشات إنما هو لدى شعراء الديارات ضرب من التماجن لا ياباه الظرف (25) ، يضعونه على المزح والهزل ولا يقصدون به غير " المطايبات والمداعبات " (26) . فكأنما هذا الشعير الذي أصبح فناً يقصد لذاته والذي سوف يطرق بسابه رجال اتصفوا بما يتصف به رجال العليم آنذاك من كرم وتبلى ووقار ، كالسراج القاري المحدث (27) ، وابن الشبل القاضي النحوي (28) وابي الفرج (انظر كتابه أدب الغرباء) والمخالد بن (انظر ما تبقى من كتابهما الضائع الديارات) والعُمري (انظر مسالكه) (29) ، - كأنما

(24) انظر شعر الضحاك ، القصيدة رقم 8 .

(25) ألم يقرن ابن الرومي مازحا الظرف بظرفة وهب في قوله :

ما لقينا من ظرف ظرطة وهب صيرت أهل دهرنا شعراء ؟

(26) الكلمتان مما استعمله الحصري في " جمع الجواهر " (انظر ص 7) .

(27) انظر قصيدة له قالها في إحدى الكنائس ؛ " مصارع العشاق " 2 / 169 .

(28) ابن الشبل النحوي (ت 474) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء ص 333 - 340 - انظر قصيدة له في دير درنا وردت بمجم البلدان ج 2 ص 659 - 660 ، وأثبتناها في ذيل هذا الجزء ص 227 - 228 .

(29) ابن فضل الله العمري (ت 749 هـ) ، انظر ارجوزته المطولة في الدير الأبيض (143 بيتاً) وبقية شعره فيه بمسالك الابصار ص 375 - 384 .

هذا الشعرُ أصبحَ خيرَ مترجمٍ عن ظَرْفٍ مُضَادٍ تَتَحَوَّلُ مَعَهُ الرُّؤْيَةُ لِلإنسانِ الكِتَامِلِ مِنْ نَمُودَجِ الفَتَى كَمَا أَقْرَنَهُ ثِقَافَةُ البَادِيَةِ (نعني جَمَاعَ القِيمِ التي تَمَثَلُهُ في رَأْيِنَا "المفضليات" ، وامتدادَ هذه القِيمِ في شعرِ بَعْضِ المُحَدِّثِينَ كَأبي شِرَاعَةَ وابنِ ثُومَةَ (30) ، ودَوْرَهَا في تَنْظِيرِ ظَاهِرَةِ الظَّرْفِ الذي قامَ به الوشَاءُ في كتابه المُوسَّسِي) لِتِي نَمُودَجٍ جَدِيدٍ يَتَّخِذُ مِنَ الحَيَاةِ الحَضْرِيَةِ أَهَمَّ خَصَائِصِهِ مِنْ رَقْضِ اللَعْنِفِ ، وَرُكُونِ ألي السَّلْمِ ، وَطَلَبِ حَامِجٍ لِلْمَسْرَاتِ دُونَ مَا قَبِيْدٍ ، وَإِسَادَةِ بِيْطِبِ الحَيَاةِ وَلذَآذَاتِهَا دُونَ مَا حَرَجَ * .

❖

ذاك هو الوجهُ الثاني الذي يكشفُ عنه شعرُ الديارات . بِقَسِيَّ أَنْ نَسْأَلَ - والسؤال ليس بجديد - عَنْ سَرَ تَعَابِشِ الأَخْلَاقِ الإِسْلَامِيَةِ وَهَذِهِ الأَتْمَاطِ مِنَ السُّلُوكِ المَتَحَرَّرِ التي مَثَلَهَا هُوَلاءُ الذَمْرَاءِ . فَهَمُّ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ تَطَرَّحُوا فِي "منازل السرور" وَعَكَفُوا عَلَى الخَمْرِ وَافْتَتَنُوا بِالمُرْدِ ، قَالُوا مَا قَالُوا وَجَاهَرُوا بِمَا جَاهَرُوا (31) وَمَا عَانَمْنَا أَنَّهُمْ أَتَّهَمُوا فِي دِينِهِمْ أَوْ أُقِيمَتْ عَلَيْهِمُ الحُدُودُ كَمَا أُقِيمَتْ عَلَى

(30) انظر ما حققناه من شعر أبي شراعة وابن ثومة بالمجلد الاول ص 136 - 152 و 166 - 193 .

(31) يصرح ابو نواس بذلك فيقول : " وما زال الناس يكاتمون بالمجون ووصف الخمر والعانات والساكر واللواط بالبصرة ، حتى نشأ الخاركي [وهو من شعراء الطبقات والورقة] فجاهر بالقول في ذلك ولم يحتشم فامثلنا نحن ما أتى به وسلكتنا نحن ذلك والناس بعده ممن يذهب مذهبه عيال عليه " . طبقات ابن المعتز / المختصر ص 306 / ذيل .

* انظر في هذا السياق قصيدة أبي نواس التي طالعها :

" إذا عيا أبو الهيجا ، للهيجا فرسانا "

الديوان ص 613 . / وكذلك قصيدة الفضل بن عبد الصمد الرقاشي التي طالعها :

" جنيني الدرغ قد طال ل عن القصف جماحي "

(انظر الجزء الثالث ص 281 - 282) .

غيرهم ممن اتهموا بالزندقة مثلا كبشار بن برد (د 167) * وحماد عجرد (د 161) وصلاح بن عبد القدوس (د 167 هـ) وأمثالهم . تلك هي القضية ، ولقد خاض فيها القدماء والمحدثون ، ولا نظن أن أحداً من أصحاب الرأي قديماً وحديثاً على اختلاف المذاهب والميول والنحل انتهى فيها الى القول الفصل . ذلك أنها كما نعلم قضية متعددة الوجوه ، ومباشرتها من سبيل معرفية واحدة قد لا يكفي - والتجربة أثبتت ذلك - لتتبع جهة الأمر فيها ، وإنما الرأي عندنا وضع الإشكالية في إطار معرفي مفتوح لا يتقيد بأية مصادر مهما كان مآتها (العقائدي منها وغير العقائدي) - ، لإطار قاعدته تمازج الاختصاص وتكامل مسالك النظر ... حتى لا نخرج من القضية - كما خرج منها عبد الرحمن صدقي في دراسته المطولة عن "خمرة" أبي نواس - وليس لنا من حصيلة سوى "شعورنا بعظمة هذا الدين الذي انفسرد دون سائر الأديان ، بأن ضرب التحريم على بنت الحسان وهذا شأنها عند الناس في عامة الآفاق والأزمان" (32) . وقد أدركت المدرسة الفتية للمفكرين العرب المعاصرين هذه الضرورة ، وما يطل علينا بين الآونة والأخرى من بحوث جريئة لهؤلاء لتدليل على أن قضايا الدين من هذه الزاوية لم تعد وقفاً على المستشرقين أو على رجاله المنتهين إليه (33) . ومهما يكن من أمر فالقضية مطروحة على بساط البحث ، وإن كان لا بد في هذا المدخل من إبداء رأي عاجل ، فسكتفي بملاحظات ثلاث نجريها على مستويات ثلاثة :

(32) عبد الرحمن صدقي : الحان الحسان ص 420 .

(33) انظر اعمال محمد أركون (الجزائري) وأنور عبد الملك (المصري) وعبد الله العروي (المغربي) وعبد الوهاب بوحدية وهشام جعيط (التونسيين) .

* انظر الفصل الذي خصصناه لبشار بن برد في :

الأول أن السُلطة السياسية ، في الفترة ما بين أواسط القرن الثاني وأواسط القرن الثالث ، ما كان ليؤذيها - والحرب قائمة في الثُغور ، والفتوحات متواصلة ، وأركان الدولة معرضة في كل آن للتصدع (ثورة بابك ، وثورة الزنج ، وبواد الحركة القرمطية في الأفق) - أن يبقى الجمهور العريض من الشعراء الذين كانوا يعمرون متديبات العواصم الجديدة وحناساتها ودور قباينها ، على ما اختاروه من لهو ومجانة ، بمعزل عن شؤون الدولة .

والثاني أن الازدواجية في السلوك التي أثرت لجمع غفير من شعراء العصر (إنهم يعقبه عادة ندم) لم تكن ، من الوجهة العقائدية ، لتدخل ضيماً على الدين ، فتسأرجح هؤلاء بين الأضداد (34) من ظاهري يجاهرون بالإباحة ، وباطن سائر في طريق الندم حالة تكاد تكون مألوفة لديهم ، وكلهم كسعيد بن وهب (وكان شاعراً مطبوعاً مشغوقاً بالغلغان والشراب) " يموثون على توبة وإقلاع ومذهب جميل " كما يقول أبو الفرج (35) . ولم يخف أمر هذه الازدواجية عن القدماء فوجدوا لها مخرجاً في كلمة للمأمون يقول فيها على سبيل الدعابة ولا شك : " إن الشراب بساط يطوى مساً علىه " (36) .

والثالث أنه لا يبعد عندنا أن يكون معظم أهل الخلافة من عامة الشعراء قد جاهروا بما جاهاوا " تماجناً لا اعتقاداً " ،

(34) انظر المحاولات الجريئة التي جمعها المستشرق جان بول شارني ونشرها تحت عنوان : « L'ambivalence dans la culture arabe » (ouvrage collectif / Edition anthropos 1967)

(35) انظر ترجمة سعيد بن وهب : الاغاني ج 20 ص 336 .

(36) نور القيس : ص 90 (مع الملاحظة ان كلمة المأمون موجهة الى ابراهيم اليزيدي الذي جمعنا بعض شعره في الجزء الثالث : ص 232 - 242) .

وأنتهم كانوا كذلك في بعض أحوالهم لا جميعها ، وأنتهم لم يختلفوا عموماً في هذا كله عما كان عليه مشاهير الشعراء أمثال أبي تمام في خلتواتهم وأوقات لهوهم (37) . فكما أن كثيراً من شعراء العصر كانوا " يتعابثون بالهجاء " (38) فـ " يهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً " (39) ، وكما أن فئة منهم كما رأينا لم يأنفوا من أن يتشبهوا بالحمقى والمخارفين والموسوسين * ، كذلك شعراء المجانة فإنه لا يبعد عندنا أن يكون كثير منهم قاد " وصقوا أنفسهم بزيد ما هم عليه حتى اشتبهوا به " (40) . ألم نر افتتان بعضهم بالغلغان (الحسن بن وهب ، وابن الزيات ، وأبو تمام) كيف أصبح لديهم في كثير من الأحيان سبباً للمساجلات الشعرية ، أو كما يقول الصولي : " سبباً للتكاتب بالأشعار " (41) ؟ نقول هذا حتى لا تشتهي علينا المسالك في هذه القضية الشائكة . أما ما ذهب إليه طه حسين ومن سار على نهجه من زعماد هذا الجيل من " أن الإسراف في العيب والغلو في المجون والإغراق في اللذات ، كل ذلك لا يدل إلا على ... حاجة الناس الى أن ينسوا أنفسهم ويتسلوا عن همومهم " (42) ، فلا نظن أن الأمر - فيما يتعلق بشعرائنا على الأقل - كان على هذا القدر من الجدة ، ولا نظن كذلك أن هؤلاء كانوا على درجة من الشقاء

(37) مروج الذهب / بلا : ج 5 ص 376 الفقرة 2837 .

(38) كتاب الاوراق / قسم اخبار الشعراء ص 7 .

(39) كتاب الاغاني : ج 18 ص 101 (اخبار والبة بن العباب) .

(40) طبقات الشعراء : ص 308 - 309 (ترجمة محمد بن حازم الباهلي) .

(41) انظر اخبار ابي تمام ص 194 - 199 .

(42) انظر : طه حسين : الوان ص 221 .

* انظر ما أدرجناه من أشعار هؤلاء في الجزء الثالث .

والبؤس و"الهموم" بحيث وجدوا أنفسهم منقادين الى المجون والغلو فيه لنسيان أنفسهم ، وهم من أشادوا بيهجة الدنيا ، وذكروا بطيباتها ، وأعلنوا راضين أن الحياة نعمة ولذة ومسرّة . ذلك أن معدن هؤلاء ليس معدن "أبيقور" (43) ، (ولو كان الأمر كذلك لخسر الأدب !) ، وأن حقيقتهم ليست حقيقة عمر الخيام (ولو كان الأمر كذلك لانتقلنا من عصر الى عصر ومن حساسية الى أخرى وافتقد شعرهم أهم خصائصه) . وهو ما اهتدى اليه محمد عبده عندما نظر في إحدى "ديريّات" أبي نواس وقال بأن هذا الشعر "وان كانت تهش له طباع أهل الخلاعة وتتنجافى عن سماعه [أو سماع بعضه] مسامع أهل الورع غير أنه ليس بحيث يمجّه ذوق أهل الأدب" (44) .

•••

بقي في خانمة هذا التحليل أن نتعرض بإيجاز - ولو كلّفنا ذلك إطالة ما كنا عزمنا على اقتضابه من هذا المدخل - الى الخصائص الفنية لهذا الشعر ، وهي عندنا تتلخص في أربع نقاط :

— الأولى أن قائله عدوا من المطوعين (45) ، ونكاد لا نخلو تراجمهم في المصادر الأصول من ذكر لهذه الصفة معلّقة بهم أو بشعرهم (46) .

(43) انظر دراسة جمال الدين بن الشيخ (المرجع المذكور اعلاه) ص 74 .

(44) انظر المقامة الايبسية / شرح محمد عبده ص 183 .

(45) فجرى مفهوم الطبع هنا بالمدلول الذي قيده به البروقفي في قوله : " ... فمتى رفض التكلف والتعمل ، وخلي الطبع المهذب بالرواية ، المدرب في الدراسة ، لاختياره ، فاسترسل غير محمول عليه ، ولا ممنوع مما يميل اليه ، أدى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكون صفوا بلا كدر ، وعفوا بلا جهد ، وذلك هو الذي يسمي "المطوع" . (شرح ديوان الحماسة : القسم الاول / مقدمة الشارح : ص 12) .

(46) انظر صفحات التصدير لشعر بكر بن عمارجة ، وعبد الله بن العباس وأبي شاس ، والحسين بن الضحالك ، واثواني ... بهذا الجزء .

— الثانية أن هذا الشعر خرج عن عمود القصيدة وأصبح كغيره من الأبواب التي طرقها المحدثون فنا مستقلا يقصد لذاته (انظر الهوامش المرقمة من 27 الى 30) .

— الثالثة أن هذا الشعر لم يخرج عن مجاري شعر المولدين من حيث نسق لغته (طلب السهولة ، وحسن التصرف في أساليب التوليد ، والمجانسة مما نهجته مدرسة البديع) وتخريب أوزانه (إشار البهور ذات الإيقاع الخفيف) ومعارض مادته التخيلية (انغلاق الفضاء التصويري في مثلث الطبيعة والخمرة والغلمان) .

— الرابعة : دلالة هذا الشعر على أنماط مستحدثة من السلوك تحدت بها أنماط جديدة من الظرف لسم تعد شريعتها اقتناء الصفات التي أقرها ظرفاء الوشاء من مروءة وفتوة وعفة ، واقتيران ذلك بعشيق النساء (دون الغلمان) يطلبن ولا يدركن (47) . وانما سنت لها اخلاقا جديدة تقوم على قانون اللذة المتحررة يجاهر بها "ظرفاؤنا الجدد" ويطلبونها من كل سبيل ، (من ذلك الخمرة وما تتيحها مجالسها من مسرات ، وعشيق الغلمان دون النساء ، والاستمتاع بما تتيحه مسارح اللهو بالمدينة من مختلف وجوه العبث والاشتغال) .

هذا شعر البطالة كما تحدت لنا معالمه في قراءة أولى عبر ثلثة من شعراء العصر ، ولو لم يكن في ما قاله هؤلاء غير تعبيرهم الحر عن لبون من ألوان الظرف المتمسجين كان له أتباعه لدى المترفين وأولاد النعيم "من الخاصة (خلفاء ، ووزراء ، وكتاب ، وقضاة ، وتجار ، ومغنين ، ومغنينين . وجوار أديبات) . لكنان في ذلك ما يكفي لدرسه والكشف عنه .

(47) انظر كتاب الموشى للوشاء ص 37 - 51 ، 50 - 82 - ومادة "الوشاء" بدائرة المعارف الاسلامية ، ودراسة فريد غازي :